

## الفصل الخامس

### توزيع الكتاب والمكتبات

يمثل توزيع الكتاب الحلقة الأخيرة في سلسلة صناعة الكتاب، وبه يكتسب النشر معناه، وللفروق بين توزيع كتاب وآخر هي التي تعبر عن مدى نجاح الكتاب ونجاح نشره، والفروق بين عدد الكتب الموزعة من الكتاب في مجتمع وعدد مثيله في مجتمع آخر تمثل الفروق الحضارية بين المجتمعين، ويمثل تطور النشر في كل منها.

والعوامل التي تؤثر في توزيع الكتب تكاد تتشابه مع العوامل التي تؤثر في توزيع الصحف، من حيث الزيادة والنقصان، ويمكن إجمال العوامل التي تزيد من توزيع الكتب فيما يلي:

١ - جودة التأليف: وتشمل جودة التأليف شهرة المؤلف، وتفوق الكتاب للمؤلف غير الذائع الصيت، كما تشمل الترجمة أيضاً، وفي الترجمة تنحصر الجودة في حسن الترجمة من جانب، وشهرة النص المترجم وشهرة مؤلفه من جانب آخر، كما تشمل شهرة المترجم من جانب ثالث، ولا شك أن الكتاب الممتاز لا بد أن ينجح نجاحاً كبيراً حتى لو كان لمؤلف ناشئ، وإن كان في هذه الحالة يستغرق رواجه وقتاً طويلاً نسبياً، كذلك من صور جودة التأليف المكتسبة الحاصلة على الجوائز.

٢ - الإعلان عن الكتاب: إن الإعلان عن الكتاب عند صدوره يمثل شهادة ميلاده، وفي مجال الإعلان عن الكتاب يمكن أن نضيف نشر أخبار عن صدور الكتب في صفحات الأدب والثقافة بالصحف، وفي برامج الراديو والتلفزيون المعنية بهذا اللون من ألوان الثقافة، كذلك يعد فقد الكتب في وسائل الإعلام إضافة إلى الإعلان عنه، كما يضاف إلى الإعلان عن الكتب عرضها في واجهات مكتبات البيع، وعند باعة الصحف للكتب التي تقوم شركات توزيع الصحف بتوزيعها.

وفي واقعنا المحلي المصري تقف أمام الإعلان عن الكتب عقبة رئيسية هي ارتفاع أسعار الإعلانات بصفة عامة، واعتبار الكتاب سلعة عادية فلا يقدم له التخفيض الكبير في سعر الإعلانات، كذلك يقف ضيق حجم سوق الكتاب عقبة أخرى أمام الإعلان عن الكتاب، لأن تكلفة الإعلان لا تتناسب مع الأعداد الهزلية التي تطبع من الكتب بصفة عامة، هذا إلى جانب عدم تقدير كثير من الناشرين لأهمية الإعلان عن الكتاب وتقوم شركات توزيع الصحف بنشر إعلان مجاني عن الكتاب الذي تتولى توزيعه في ركن ثابت صغير تحت عنوان مع الباعة أو صدر اليوم أو ما شابه ذلك من العناوين، وتحظى الكتب التي تنشرها بعض المؤسسات الصحفية بنصيب وافر من الإعلانات، لأن المؤسسة الصحفية هي ناشر الكتاب، ومثال ذلك كتاب اليوم وكتاب الهلال، ومن التقاليد غير المنطقية في الصحف المصرية عند نشر خبر عن صدور كتاب جديد عدم ذكر الناشر وعدم ذكر سعر الكتاب، برغم أن اسم الناشر جزء من الخبر وبرغم أن القارئ لا تتم الخدمة الصحفية له إلا بذكر اسم الناشر ليشتري الكتاب إذا أراد.

وحجة القائمين على نشر تلك الأخبار أن ذكر الناشر أو السعر يعد إعلاناً عن الكتاب، وهذا فيه تعسف كبير، ولم تقلت من قبضة هذا التقليد غير المنطقي إلا جريدة الجمهورية في العقد التاسع من القرن العشرين، فهي تنشر خبر صدور الكتاب وأسم الناشر وسعر الكتاب.

٣ - سعر الكتاب: يمثل سعر الكتاب عاملاً جوهرياً في زيادة التوزيع أو قلة التوزيع، فالكتاب الرخيص الثمن تفتح أمامه أبواب التوزيع إذا توفرت له شروط النجاح، ولعل في سلسلة عالم المعرفة التي تصدرها الكويت أوضح مثل على ذلك، إن أعداد الكتب التي تصل إلى مصر وإلى السودان منها لا تبقى في السوق إلا دقائق، بل إنها تباع في السوق السوداء أحياناً، ويحظى بها من له صديق من باعة الصحف في أحيان أخرى، وربما يكون من باب المقارنة غير العادية أن يقارن سعر كتاب تدعمه حكومة بترولية بسعر كتاب يجدد ناشر عادي سعره، ولكن في كل الأحوال كلما قل سعر الكتاب زاد التوزيع، وكلما ارتفع السعر قل التوزيع.

٤ - سهولة الشراء: نغنى بسهولة الشراء أن يصبح الكتاب في متناول القراء أو بمعنى آخر يمكنهم الحصول عليه بالشراء في سهولة ويسر، فكلما كثر عدد مكتبات البيع وغطت كافة الأحياء والمدن كلما زاد توزيع الكتاب، وكلما زادت نسخ الكتاب مع باعة الصحف - في حالة التوزيع عن طريق شركات توزيع الصحف - كلما زاد توزيعه، وكلما أقيمت معارض متنقلة في الكليات الجامعية والمدارس والمصانع وما شابه ذلك من وحدات الإنتاج والخدمات كلما زاد التوزيع.

٥ - المعارض السنوية للكتاب: تمثل المعارض السنوية للكتاب عاملاً من عوامل زيادة التوزيع إلى جانب ما تمثله من أهداف ثقافية وخدمات لصناعة الكتاب ونشره بصفة عامة، ففي هذه المعارض تكاد تجتمع كافة عوامل زيادة التوزيع، فجودة التأليف يمثلها الحشد الكبير للكتب في المعرض، وجانب الإعلان عن الكتب يمثلها المعرض في حد ذاته، وجانب سعر الكتاب يمثلها التخفيض الذي تجرص معظم دور النشر على سريانه خلال فترة المعرض على سعر الكتب، وجانب سهولة الشراء تمثله إجراءات البيع في المعرض أصدق تمثيل، وإلى جانب كل ذلك فإن ذهاب القراء إلى معارض الكتب يمثل حالة الاستعداد والتهيؤ للشراء.

وتعد ظاهرة المعارض السنوية للكتاب في معظم بلدان العالم امتداداً لما شهدته عصر النهضة الأوربية من أسواق الربيع والخريف للكتاب، فقد اعتاد تجار الكتب<sup>(١)</sup> من ناشرين ووسطاء أن يجتمعوا مرتين في كل عام في الربيع والخريف بسوق مدينة «فرانكفورت» حيث يزاولون تجارة الكتب عن طريق المبادلة ورقة بورقة، حيث كانت المجالات التجارية تفيض بالحياة والعمل، ثم فاق سوق «ليبيج» بعد ذلك سوق «فرانكفورت».

ولا تقتصر أهمية المعارض السنوية للكتاب في أيامنا هذه على زيادة توزيع الكتاب، بل تعد عاملاً هاماً في تنمية إنتاج الكتاب بصفة عامة، إنها تعرض الكتب، وتعرض آلات الطباعة الحديثة، وتعد حلقات دراسية حول مشاكل الكتاب ونشره، وتثري الرأي العام بالمعلومات والآراء والأفكار حول إنتاج الكتب ومشاكل إنتاجها وتسويقها.

(١) سفندال مرجع سابق - ص ١٥١.

٦ - الطبقات الشعبية: تعد جودة الطباعة وجودة إخراج الكتاب وبخاصة الغلاف من عوامل زيادة توزيع الكتب، ولكن هذا العامل المتمثل في جودة الطباعة والإخراج يمثل قاسماً مشتركاً في كافة أنواع الكتب، وتبقى الطبقات الشعبية الزهيدة الثمن أو المنخفضة السعر عن الطبقات الفاخرة.. تبقى لها سمة التميز في زيادة التوزيع، ومرد ذلك إلى تلبية الطبعة الشعبية بسعرها المنخفض نسبياً للقدرات الشرائية لجماهير عريضة من القراء مثل الطلبة وصغار الموظفين، وهم من أكثر القراء حماسة للسعر المنخفض.

ويدخل في نطاق الطبقات الشعبية دعم الحكومات للكتب بما يخفض سعرها كثيراً، وكذلك دعم بعض الهيئات والمؤسسات لنشر الكتب بتضامنها في نفقات النشر أو بنشر بعض إعلاناتها في صفحات في آخر الكتاب، ومن الجدير بالملاحظة أنه في البلدان الرأسمالية حيث تسود في السوق قوانين العرض والطلب تقدم البنوك وشركات الطيران والمؤسسات الاقتصادية معونات لسلامل من الكتب لترجمتها ونشرها عالمياً، وذلك إسهاماً منها في نشر الفكر القومي والتراث الحضارى خارج أوطانها.

٧ - أسباب ثانوية أخرى: هنالك أسباب ثانوية تزيد من توزيع الكتاب مثل مناخ الديمقراطية الذى يساعد على حرية النشر، ومثل دور الوسائل الإعلامية المختلفة في عرض الكتاب ونقده، ومثل القدرة الشرائية للأفراد، ومثل درجة التحضر التى وصلها المجتمع والتي تبين تقديره للكتاب.

وتختلف الأسباب الثانوية التى تزيد مع توزيع الكتب من مجمع إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، فقد زاد توزيع الكتب خلال الحرب العالمية الثانية لاضطرار الناس إلى البقاء في بيوتهم بسبب الغارات الجوية، وتعطل كثير من دور اللهو أو تمضية أوقات الفراغ، كذلك يمكننا أن نتصور دور المناسبات في زيادة توزيع نوع من الكتب أو في زيادة توزيع كتاب معين، ففي موسم الحج يكسح معدلات التوزيع كتاب عن مناسك الحج، وفي موسم تقديم الإقرارات الضريبية يحدث الشيء نفسه لكتاب عن آخر تعديلات لقوانين الضرائب، وهكذا...

أما العوامل التى تقلل من توزيع الكتب فيمكن اجمالها فيما يلي:

١ - الأمية: تمثل الأمية العائق الأول أمام توزيع الكتاب فهى تخرج من البداية أصحابها من سوق الكتاب، وكلما تفتشت الأمية كلما أصبحت فرصة توزيع الكتاب قليلة، وتصل إلى حد الاستحالة في القرن التى يندر فيها عدد القارئين.

ولكن لا ينبغي أن نحددنا زيادة نسبة الأمية في المجتمعات النامية باعتبارها عاملاً رئيسياً في تقليل نسبة توزيع الكتب، فلا مثل مصر، فإذا قلنا إن نسبة الأمية في مصر مرتفعة فهذا حق، ولكن إذا قلنا إنها السبب الرئيسى أو السبب الوحيد لتعثر توزيع الكتاب فإننا نقع في خطأ فادح، فإذا نظرنا مثلاً إلى عدد الجامعات في مصر الذى يزيد عن عشر جامعات، وإذا نظرنا إلى عدد المتقدمين للشهادة الثانوية في كل عام والذى يبلغ ربع مليون، وقارنا ذلك بتوزيع الكتاب الثقافى العام الذى لا يتجاوز ألفى نسخة أو ثلاثة آلاف نسخة أو بضعة آلاف لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة في أحسن الظروف، يمكننا أن ندرك - على الفور - أن هناك من الأسباب ما هو أقوى من الأمية في تعثر توزيع الكتاب.

٢ - انخفاض القدرة الشرائية لدى القراء : مما يجعل ثمن الكتاب عبئاً اقتصادياً، وقد يخفى ظاهر مستوى المعيشة حقيقة القدرة الشرائية للقراء، فإن من يرى إقبال الناس في مصر مثلاً على السلع التموينية يظن أن الكتاب لمن يريد شراءه ليس عبئاً، ولكن المدقق للأمر يرى صورة مختلفة، لأن قارئ الكتاب لا ينتمي - في الأغلب - إلى القادرين على الشراء في ظل الانفتاح المصرى خلال العقد الثامن من القرن العشرين وأوائل العقد التاسع، فنتيجة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية ساء توزيع الدخل القومي وأصبح الجهلاء يكسبون أكثر من المثقفين والمتعلمين الذين يمثلون السوق الحقيقي للكتب.

وعلى أية حال فإن انخفاض القدرة الشرائية للقراء أمام الزيادة المستمرة في تكلفة الكتب تمثل سبباً واقعياً لقلّة توزيع الكتب.

٣ - المنافسة الإعلامية والاهتمامات المختلفة: يرتبط هذان السببان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً في مجال التأثير على توزيع الكتب، لأن وسائل الإعلام هي التي تجعل من الاهتمامات منافساً لاهتمامات القراء بالكتب، وهي التي تصرف الأنظار عن الكتاب بتشجيع هذه الاهتمامات ومد نطاقها، ومثال ذلك اهتمامات الناس بمباريات كرة القدم، إنها في حد ذاتها تعد عاملاً في تقليل توزيع الكتب، ولكن إذاعة الراديو والتلفزيون لهذه المباريات وإفراد الجرائد صفحات يومية لها يضاعف الأثر.

والواقع أن المنافسة الإعلامية تمثل سلاحاً ذا حدين في توزيع الكتاب، فإذا أفسحت وسائل الإعلام صدرها لنشر أخبار الكتب، ولتقد الكتب وعرضها أصبحت من عوامل زيادة التوزيع، أما إذا كانت الكتب غريبة أو شبه غريبة في صفحات الجرائد والمجلات وفي برامج الراديو والتلفزيون أصبحت بحكم اجتذابها للجمهور من وسائل تقليل توزيع الكتب، والمعروف أن جمهور وسائل الإعلام مشترك، وأن الوسائل يستحوذ بعضها على جمهور البعض، ولكن ربما ساعدت بعض الوسائل على كثرة جمهور وسيلة أخرى، فقد تبين لكثير من الباحثين أن الراديو عند انتشاره لم يقض على الصحف بل إن القارئ الذي يستمع إلى الأخبار في الراديو أصبح يحب أن يقرأها مفصلة ومكتوبة في الصحيفة. ويأتى التأثير السلبي لوسائل الإعلام المنافسة للكتاب على توزيعه من المناخ العام الذى تخلقه هذه الوسائل في اهتمامات الناس، وتركيزها حول مباريات كرة القدم، والتسلية بصفة عامة، هذا إلى جانب الضغوط اليومية للحياة العادية للقراء من مشاكل تامين ومواصلات وإسكان وما شابه ذلك مما يصرف الناس عن قراءة الكتب.

٤ - أسباب ثانوية أخرى: من الأسباب الثانوية التي تقلل من توزيع الكتاب نشر الكتب الهابطة، ورداءة الطباعة والإخراج، وكثرة الكتب التي تنمق الحكام، وغيبة الحرية في المجتمع.

#### نفقات التسويق ونسب الخصم:

نحن نستخدم كلمة التسويق فيما يتعلق بنفقات توزيع الكتب لأنها أدق، فرجال الإدارة ورجال الاقتصاد يفضلون كلمة التسويق، ويقولون: إنها تشمل كافة الجهود المتعلقة ببيع الكتاب، وليست عملية بيعه وحسب، وعلى ذلك فإن نفقات الشحن، ونفقات الإعلان عن الكتاب تندرج تحت نفقات التوزيع، وهناك اصطلاح سائد في توزيع الكتب يطلق عليه نسبة الخصم، وهي النسبة من سعر بيع

نسخة الكتاب التي يتقاضاها من يتولى البيع، الذي هو عادة تاجر التجزئة، أى صاحب مكتبة بيع الكتب في واقعنا العربي المعاصر، أو شركة التوزيع كما هو الحال في شركات توزيع الصحف الكبرى في مصر: الأهرام، الجمهورية الأخبار، أو مصدر الكتب للخارج أو غير ذلك ممن يقومون ببيع الكتاب، وتفاوت نسبة الخضم تفاوتاً كبيراً فهي ١٠٪ أودون ذلك في الكتب المدرسية وما شابهها، وهي ٤٠٪ أو أكثر في الكتب المصدرة، وهي بين ٢٠٪ و ٢٥٪ في الأغلب والأعم من الكتب.

والعلاقة الصحية والطبيعية بين توزيع الكتاب ونسبة الخضم تلتخص في أنه كلما زاد التوزيع أمكن تخفيض سعر الكتاب بتخفيض نسبة الخضم، أو أمكن إجراء التخفيض على السعر المعلن على الغلاف، وهذا ما يحدث في معارض الكتب السنوية والموسمية، وزيادة نسبة الخضم عن ٢٥٪ من شأنها أن تحدث خللاً في توازن موارد الكتاب ومصرفاته.

ويعتبر موزع الكتاب في الموقف الأقوى دائماً في أطراف عملية النشر، لأن دوره يكاد يسبه دور الصياد في تجارة الأسماك. فإن أطراف العمل في إنتاج الكتاب ينتظرون إيرادات التوزيع ليحصل كل منهم على نصيبه، لذلك فإن نسب الخضم تخضع غالباً لقرار الموزع أو على الأقل توضع مطالبه في تحديد نسبة الخضم موضع الاعتبار، ولا شك أن الإقبال على الكتاب وكثرة عدد الموزعين وغير ذلك من العوامل تمثل عوامل التوازن في تحديد نسبة الخضم.

### مشكلة توزيع الكتاب المصري:

ليست هناك مبالغة في القول بأن مشكلة توزيع الكتاب المصري هي مشكلة النشر في مصر، وذلك لأن عناصر إنتاج الكتب الأخرى تجد حلولاً إذا زاد توزيع الكتاب المصري، وبعض العناصر لا تمثل مشكلة في مصر من الأساس، فالمؤلفون المصريون يقفون في الصف الأول بين أقرانهم من أبناء العالم الثالث كما وكيفما، وصناعة الكتب في مصر قطعت شوطاً تاريخياً لا بأس به وكثير من ناشري القطاع الخاص احتفلوا بالعيد المئوي لإنشاء دورهم، وبعضهم على وشك الاحتفال بمرور المائة عام، والمطابع في مصر على درجة من التجهيزات والكفاءة تمكنها من إنتاج الكتاب على المستوى المطلوب، والمشكلة الرئيسية في النشر المصري هي التوزيع، ذلك التوزيع الذي لا يتناسب مع قدرات وإمكانات النشر من جانب، ولا يتناسب مع إمكانات السوق المحلي بأعداد الهائلة من القارئ الكاتبين، أو إمكانات السوق العربي باعتبار وحدة الثقافة العربية.

ويمكننا بصفة عامة أن نحصر أهم نقاط مشكلة توزيع الكتاب المصري في ثلاث نقاط هي:

- \* ضيق حجم السوق.
- \* معوقات التصدير.
- \* تقليص المكتبات العامة وضعف قدراتها الشرائية.
- وستتناول كلا منها بشيء من التفصيل.

### ١ - ضيق حجم السوق:

مثلاً يحدث في بلادنا ببلوغ بعض الأسطوانات الشعبية إلى بيع مليون أسطوانة، يحدث في توزيع

الكتاب في بلدان العالم المتقدم. فكتاب التحدى العالمى للمصحف الفرنسى جان جاك شراير بيع منه أكثر من مليون نسخة في العام الأول من صدوره. وهذا التوزيع الهائل للكتب في البلدان المتقدمة هو الذى دفع بصناعة الكتاب إلى الأمام. وفي المقابل فإن قلة التوزيع حيث يطبع من الكتاب عندنا ما بين ألفين إلى خمسة آلاف تمثل عائقاً أمام تقدم صناعة الكتاب، فالتكنولوجيا الطباعية الحديثة باستخدامها الآلية في إنتاج الكتاب تستطيع أن تقدم لنا الإتقان والجودة والسرعة في وقت واحد، ولكن يمنعنا من استخدامها في إنتاج الكتاب أنها تتطلب أن يكون حجم المطبوع من الكتاب كبيراً وإلا أصبحت غير اقتصادية، فعلى سبيل المثال لا يصبح إنتاج الكتاب اقتصادياً إلا إذا تجاوز ٥٠ ألف نسخة، وهذا الرقم شبه مستحيل في النشر المصرى، وقد عقدت جريدة الأهرام ندوة في فبراير ١٩٨٣ لمناقشة مشكلة الكتاب كانت في جوانب عديدة منها تبرز مشكلة ضيق حجم السوق، وجوانب أخرى من الندوة تبين لنا الأسباب الكامنة وراء ضيق حجم السوق، ومن ثم مشكلة النشر بصفة عامة، قال الناشر إبراهيم المعلم<sup>(٢)</sup> في الندوة: إن عدد القراء في مصر يتناقص عن عددهم منذ ثلاثين سنة إذا قورنت أعداد القراء بنسب الزيادة في تعداد السكان فضلاً عن زيادة النسبة في التعليم، وأضاف بأن الجمارك مشكلة بالنسبة للنشر المصرى، ولأن وسائل ومواد الكتاب تستورد فلا بد من دفع رسوم جمركية عليها، هذه الرسوم الجمركية تصل إلى ٥٠٪ مثل الأقلام التى تستعمل في الطباعة، وتصل الرسوم الجمركية في ماكينات الطباعة إلى ٧٥٪ وفي الكارتون المستخدم في التجليد إلى ٢٠٠٪. وقال: إنه ترتب على ذلك ارتفاع تكلفة إنتاج الكتاب، وحين يرتفع إنتاج الكتاب تقل إمكانية تصديره، وحين تقل إمكانية تصديره، يقل عدد النسخ المطبوعة منه، وحين يحدث هذا يرتفع ثمن الكتاب وحين يرتفع ثمن الكتاب يقل عدد القراء، وهكذا تصبح الدائرة مفرغة خبيثة، أما الناشر سمير سعد فقد ذكر في الندوة أن الناشر يتعرض لمشكلتين، اليد العاملة، وآلات الطباعة، واليد العاملة صارت نادرة بسبب هجرة العمال المهرة إلى الدول العربية، وآلات الطباعة الحديثة تحتاج إلى عمال يستوعبون العمل عليها وهذا غير متاح لهجرة العمال. ومن الاقتراحات الشاملة<sup>(٣)</sup> لسوق الكتاب المصرى ما يلى:

- (أ) عقد اتفاقية بين الدول العربية تسمح بدخول الكتب في كل الحالات ويمكن فقط حظر دخول الكتب السياسية إذا شاءت هذه الدول أو تلك.
- (ب) الاهتمام بالنشرة الببلوجرافية المصرية.
- (ج) إنشاء مصانع جديدة للورق.
- (د) تخفيض الرسوم البريدية، والإعفاءات الجمركية بالنسبة للكتب.
- (هـ) زيادة أجور المؤلفين والمترجمين.
- (و) إنشاء مراكز تدريب للطباعة ودعم مركز تنمية الكتاب.
- (ز) التخطيط والتنسيق بين دور النشر، وترجمة عيون الفكر العالمى وترجمة روائع الإنتاج المصرى إلى اللغات العالمية.

(٢) جريدة الأهرام بتاريخ ١١ - ٢ - ١٩٨٣.

(٣) لى المطبوع جريدة الأخبار بتاريخ ٢١ - ٣ - ١٩٨٣.

## ٢ - معوقات التصدير:

يثل الكتاب الجانب الأكبر والأهم في الصادرات المصرية من مختلف المطبوعات، وبين الجدول التالي الصادرات من مختلف المطبوعات خلال عام ١٩٧٦ بالمقارنة مع عام ١٩٧٥ كما وردت بالتقرير السنوي لفرقة صناعة الطباعة والتجليد ومنتجات الورق<sup>(٤)</sup>.

١٩٧٦		١٩٧٥		الأصناف
القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	
٨١٠٣٢٦	٢٥٣٥	٧٠٣٥٦١	٢٢٣٢	صحف ومجلات
٧٦٤٦	١٣	—	—	علب وأكياس
٥٢٩٤١	٤١	٥١٧٣٠	٥١	دفاتر وكراسات
٣٥٦٦٨٥٥	٢٥٢٣	٣٧٦٩٠٧٣	٣١٣٢	الكتب
—	—	٢٥	*	علب لحفظ الأوراق والرسائل

\* أقل من ٥٠٠ كيلوجرام

يتضح من الجدول السابق أن الصادرات المصرية من الصحف والمجلات حققت ارتفاعاً ملحوظاً عام ١٩٧٦ حيث بلغت ٢٥٣٥ طنًا قيمتها ٨١٠,٣ ألف جنيه مقابل ٢٢٣٢ طنًا في عام ١٩٧٥ قيمتها ٧٠٣,٦ ألف جنيه.

(٤) التقرير السنوي لفرقة صناعة الطباعة والتجليد ومنتجات الورق (١٩٧٧).

وفيا يلي بيان الصادرات المصرية من الكتب خلال عام ١٩٧٦ مقارنًا بعام ١٩٧٥ حسب البلاد المستوردة.

الكمية بالطن / القيمة بالجنيه

١٩٧٦		١٩٧٥		البلد
القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	
٣٤٠٨٨	٣٥	١١٠٠٩	١٣	سوريا
٤٠٣٠٩	٤٦	٤٤٩٨٤	٥٧	الأردن
١١٨٥٣٣	١٩٧	٥٢٨٢٩	٥٥	الجزائر
٧٦٥٦٤	٥٦	٧٣٠٥٣	٦٣	العراق
٦٣٣٣٧٠	٥٤٩	٢٢٣١٤١	٢١١	السعودية
٢٣٥٥٩٥	١٦٨	٢٤٠٣٤٤	١٤٦	السودان
٤٤٧٥١	٤٨	٧٤٥٧	٧	اليمن
٣٨٠٢٧	٢٧	١٥٣٦٥	١٠	تونس
٢٠٦٠٢	٢٦	١٨٦٤٧٢	٢١٠	لبنان
١٢٩٢٤٥٥	٧٤١	٢٢٠٦٦٩٠	١٩٦٧	ليبيا
٣١٤٢٤	٣٨	٤٧٧٨٥	٥١	المغرب
١٧٤٠١٦	١٠٨	١٣٧١١٧	٩٢	الكويت
٣٦٠٩٢	٢٧	٩٦٤١	١٧	جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية
٤٢٠٤٣	٤٩	٣٤٣٧١	٣٤	الاتحاد السوفيتي
—	—	٤٠	*	بلغاريا
١٠٦٣٠	١٢	١٠٠	*	تركيا
٢١١٩	١	٧٦٠٣	٧	بريطانيا
—	—	٩٣	*	الدانمرك
١٠٨١٩	٢	٢٤١٠	٢	ألمانيا الاتحادية
٣٤٩٤	٤	٥٨٨٢	٧	فرنسا
١٧٧١٦	٤	١١٠٩	١	هولندا
٣٦٦١	٤	٣٧٦٤	٥	الملايو
٣١٤٧٩٤	١٧٢	١٠٥٣٥١	٦٧	البحرين
١١٥٤٥	٤	٩٩٣	*	الهند

## الكمية بالطن / القيمة بالجنيه

١٩٧٦		١٩٧٥		البلد
القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	
٢٢٨	*	٧٠	*	اليابان
٢٨٢٧٠	٢٤	—	—	أندونيسيا
٢٠٦٦	٢	٢٥٣٦	٤	إيران
١٧٦	*	٣٩١	١	تايلاند (سيام)
١٨٨٢	٢	١٩٣٦	٢	سنغافورة
٨٧٨	*	٤٦٥٥	٥	باكستان
*	*	٢٠	*	سيلان
٤٧٠٩٦	١٣	٢٣٢٦٨٩	٢٣	قطر
٨٥٧٦	٤	٥٤٦١	٢	مسقط عمان
١٠٢٢٠٢	٦٣	٥٠٢٤١	٢٩	إمارات ساحل عمان
١٢٤	*	١٣٨٣	٢	أنثيوبيا
—	—	٣٣٣٦	٢	أوغندا
٨١٤	١	١٨٧٥	٢	الصومال
—	—	٩٥٥	١	السنغال
٨٣٩٨	١١	٧٥٢٨	١٥	ساحل العاج
٣٢	*	٢١٦٦	٢	موريتانيا الإسلامية
٣٤	*	٧	*	سيراليون
١٨٥٥	٢	٢٦٤٩	٤	غانا
٥٥٢٧٢	٦٤	٢٨٢٩٦	٣٣	نيجيريا
٨٥٠	١	١٧٤	*	الصومال
٥١٨	١	٧٢	*	تنزانيا
٦٧٦	١	١٨٢٠	٢	أمريكا
٣٠٥	*	١٥٨	*	أستراليا
٤٠٩٥	٤	٢٩٦٨	٢	بلاد أخرى
٢٥٦٦٨٥٥	٢٥٢٣	٣٧٦٩٠٧٣	٣١٣٢	المجملة

\* أقل من ٥٠٠ كيلوجرام.

وسين الجدول التالي إجمال الصادرات المصرية من الكتب خلال تسعة أعوام مقارنا بعام ١٩٥٢ :

السنة	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الزيادة بالنسبة لعام ١٩٥٢		الزيادة أو النقص بالنسبة للعام الماضي	
			في القيمة %	في الكمية %	في القيمة %	في الكمية %
١٩٥٢	٨٣٠	٢٧٨٤٩١	٢٢٤,٠	٤٦٨,٢	٢٨,٠+	٢٩,٥+
١٩٦٨	٢٦٨٩	١٤٧٠٩٢٧	١٢٨,٤	٢٢٧,٤	٧٦,٠+	٣٠,٠+
١٩٦٩	١٨٦٦	٩١١٧٧٤	٣٦٧,٤	٤٧٦,٤	٣١,٧-	٢٨,٠+
١٩٧٠	٢٤٦٦	١٦٠٥٣٠٠	١٩٧,٠	٣٩٢,٥	٩٩,٧+	١٢٩,٠+
١٨٧١	١٧٧٥	١٠٩٥٩٥٢	١١٣,٨	٢٨٦,٠	٨٧,٠+	٤٥,٢-
١٨٧٢	٤٠٦٦	٢١٨٩٣٥٣	٢٨٩,٨	٦٨٦,٠	٤٤,٩+	١,٧-
١٨٧٣	٦٢٦٢	١١٩٩٣٥٤	١٦٦,٥	٣٣٠,٧	٤٤,٩+	١٩,٤-
١٨٧٤	٣١٨٥	٢٣٩٨٦٣٦	٢٨٣,٧	٧٦١,٣	٥٧,١+	١٩,٤-
١٩٧٥	٣١٣٢	٢٧٦٩٠٧٣	٢٧٧,٣	١٢٥٣,٤	١٩,٤-	١٩,٤-
١٩٧٦	٢٥٢٣	٢٥٦٦٨٥٥	٢٠٤,٠	١١٨٠,٨	١٩,٤-	١٩,٤-

تبين لنا هذه الإحصائيات أن مجال التصدير أمام الكتاب المصرى يمكن أن يكون فعالاً، ولكن المشكلة هى المعوقات التى تقف أمام التصدير، ويمكن بصفة عامة أن نحصرها فى نوعين من المعوقات، أولاهما المعوقات الإدارية المصرية، وثانيها المعوقات على الجانب الآخر فى الدول المستوردة للكتاب المصرى مثل الرقابة الشديدة ومثل مشاكل تحويل العملة ومثل المقاطعة السياسية للحكومة المصرية التى تنعكس على الكتاب بصفة مباشرة.

وفى ندوة الأهرام عن مشكلة الكتاب أثرت مشكلة عوائق تصدير الكتاب ولخص الناشر عبد الحميد غريب المشكلة فى ثلاث نقاط:

(أ) قال المشرع المصرى: تعفى الصحيفة والدورية والكتاب من شرط استرداد القيمة.. وعلى الرغم من ذلك ترى تصدير الكتاب مقيداً بفترة زمنية، كانت خمس سنوات ثم صارت ثلاث سنوات إذا لم يسترد بعدها حصيلته قدم المصدر إلى نيابة الأموال العامة.. علماً بأن تصدير الكتاب يختلف عن تصدير أى سلعة أخرى.

(ب) تدعى دور النشر المصرية للاشتراك فى معارض فى الدول العربية ومن شروط الاشتراك إرسال نسخة أو نسختين من المعروض للفحص والمراجعة، ليرى هل يتناسب هذا مع عرضها فى المعرض أم لا.. وتعطى الهيئة المصرية للكتاب للمصدر المصرى الحق فى ١٠٠ جنيه كتب فقط بدون خصم فى العام، وهذا المبلغ ضئيل جداً.

(ج) أحجم المصدر المصرى عن عرض كتبه وفتح أسواق جديدة خوفاً من نيابة الشئون المالية، وأعتقد أن كثيراً من الناشرين مقدم للنيابة حتى الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار المعارف، وهؤلاء قطاع عام.. ولا سبيل للخروج من أزمة الكتاب إلا بإعادة النظر فى كافة البنود الجمركية المتصلة بإنتاج الكتاب، وإجراء مراجعة شاملة لجمارك الورق ومستلزماته بصفة عامة ومثل آلات الطباعة والحبر ومستلزماته، وهذا هو الطريق لخفض سعر الكتاب المصرى.. حتى يمكنه أن يتنافس الكتاب العربية، وليس غريباً اليوم أن سعر الكتاب وتكلفة إنتاجه اليوم فى مصر أعلى بكثير من إنتاجه فى دول أخرى والدليل على ذلك أن بعض دور القطاع العام فى النشر لجأت إلى إيطاليا واليابان وأستراليا واليونان لطبع كتبها فى الخارج.

وعن اقتراحات الحلول لمعالجة معوقات تصدير الكتاب يقول الدكتور حسين النعمى<sup>(٤)</sup> رئيس مجلس إدارة شركة التوزيع القومية: لقد انحصرت أسواق التصدير أمام الكتاب المصرى حتى كاد يختفى تماماً من الأسواق العربية، ولقد حاولت لجنة النشر بالمجلس الأعلى للثقافة أن تدق ناقوس الخطر وأن تنبه إلى خطورة الموقف مطالبة بتخفيض القيود والإجراءات التى يلتزم بها مصدر الكتاب فى مصر، فالفواتير يجب أن تراجع فى مكتب مختص بالهيئة العامة للكتاب وكثيراً ما يطلب هذا المكتب نسخة من كل كتاب لإمكان المراجعة، وهى مسألة تستغرق أياماً إذا لم يكن لأحد موظفى هذا المكتب اعتراض وشروط إذا اعترض على الأسعار أو نسب الخصم أو شروط البيع، وإذا كان بين الكتب المصدرة كتاب دينى فالأمر يتطلب موافقة الأزهر الشريف على تصدير هذا الكتاب المطروح للتداول فى

(٤) التقرير السنوى لفرقة صناعة الطباعة والتجليد ومنتجات الورق (١٩٧٧).

مصر. كما لو كان تصدير بضع نسخ أكثر خطورة من تداول المئات منها في السوق المحلية، ثم إقرار باسترداد القيمة خلال فترة معينة، ثم الإجراءات الجمركية، ولما إذا تأخر المستورد في سداد قيمة الرسالة فتتوالى الإنذارات للمصدر ثم التحويل إلى النيابة والمحكمة، لذا نجد المصدر المصرى يقصر معاملاته على عدد محدود جداً من المستوردين الذين يطمئن إلى أنه لن يحاكم جنائياً إذا تقاعسوا عن السداد.

ونجد المصدر المصرى يعتذر عن تنفيذ أو يهمل تنفيذ كثير من الطلبات التى تصل إليه إذا كان حجم الطلب مما لا يساوى من وجهة نظره - ما سيبدله من جهد وجرى وراء المختصين - هنا وهناك، لقد فتح هذا الوضع الباب على مصراعيه أمام مستوردى الكتاب المصرى، ووجد المستوردون وتجار الكتب أن التعامل فى الكتاب المزور فى لبنان وإيران أيسر وأكبر كسباً من محاولة استيراده من مصر، لقد دعت لجنة النشر إلى معاملة الكتاب المصرى كالصحيفة أو المجلة من حيث التيسيرات التقديرية والجمركية وكافة إجراءات التصدير.

### ٣ - تقليص المكتبات العامة وضعف قدراتها الشرائية:

المكتبات العامة فى المحافظات والبلديات والبنادر وفى الهيئات وفى المدارس والجامعات هم المشترى الثابتون للكتاب، وهذه المكتبات تشبه الاشتراكات فى الصحف، وفى مصر حدثت ظاهرة شاذة خلال العقدين السابع والثامن من القرن العشرين فى مجال المكتبات العامة هذه وهى تقليص عددها من جانب وعدم اعتماد ميزانيات للباقي منها من جانب آخر، وبذلك لم تصبح من مشترى الكتب بشكل أو آخر، وبرزت المشكلة فى أوائل العقد التاسع من القرن العشرين بصورة تدعو إلى القلق واليأس، فقد كانت المكتبات المدرسية لها اعتمادات مالية وكان الناشرى يعرضون كتبهم عليها فتشترى الوزارة مركزياً وتشترى المكتبات مباشرة من ميزانيتها المحلية.

### المكتبات:

استخدامنا لمصطلح المكتبة فى هذا المجال يعنى المكتبة التى تضم عدداً من الكتب، ولها نظام فى الإعارة الداخلية والخارجية، ولها نظام فى الفهرسة والترتيب، وليست الحوانيت التى تبيع الكتب، إننا نسميها متاجر التجزئة لبيع الكتب<sup>(٥)</sup>.  
ويذهب أساتذة المكتبات إلى تسمية المكتبة وفق أهدافها، فالمكتبة الوطنية هى مكتبة القطرة بأسره، وتؤدى الأغراض الرئيسية التالية:

- ١ - الجمع، ويشمل حصر الإنتاج الفكرى بمختلف صوره من كتب ومجلات وجرائد ونشرات، ومواد تسجيلية، ومواد مصورة، وخرائط أو ما شابه ذلك.
- ٢ - التنظيم، ويقصد به تنظيم مقتنيات المكتبة وفق القواعد المكتبية لتصبح معدة للاستخدام.
- ٣ - التعريف، ويقصد به استخدام وسائل النشر للتعريف بالإنتاج الفكرى الوطنى والدولى.
- ٤ - الحفظ، ويقصد به المحافظة على مقتنيات المكتبة من الضياع أو التلف.

(٥) محمود الأخرس المكتبة العربية الوطنية - مجلة شئون عربية - العدد ١١.

تم المكتبة الأكاديمية وتمثل في المكتبات الجامعية والمؤسسات التعليمية على مختلف مستوياتها ومهمتها الرئيسية تيسير البحث للدارسين والباحثين.

تم المكتبة المتخصصة، وهي التي تتخصص في موضوع معين مثل المكتبة الموسيقية أو القانونية أو التاريخية، أو هي التي تتخصص لفئة معينة مثل مكتبة الصحفيين أو التجار أو المهندسين، ثم المكتبة الخاصة وهي مكتبات الأفراد أو العائلات.

من هذا التصنيف لأنواع المكتبات يتبين لنا أن المكتبة الوطنية تعد مؤسسة ثقافية في المجتمع وأن عليها واجبات وطنية تتمثل في قيادة العمل المكتبي في الوطن والمكتبة العامة حق للشعب على الدولة<sup>(٦)</sup>، ذلك لأن المكتبة أداة للتعليم والإعلام، وكلاهما من الوظائف الأساسية للدولة.

والدكتور أحمد أنور يؤكد قول ستانلي بأن الكتاب أداة، والأداة التي لا تقرها يد الاستعمال ليست سوى حمل سقط، أما إذا كان كتاباً تنحصر قيمته في ندرته، إذن فقد أصبح تحفة وليس أداة.

إن المكتبة الوطنية والتي تسمى أحياناً المكتبة القومية تضطلع بإصدار البيبلوجرافيا الوطنية أو القومية، وياعداد لوائح وأنظمة المكتبات العامة الأخرى في الوطن، والاتصال والتنسيق مع المكتبات في خارج الوطن.

وفي الحضارات القديمة كانت المكتبة الشبيهة بالمكتبة الوطنية في أيامنا هذه قائمة، لقد كانت مكتبة الإسكندرية في مصر، وكانت مكتبات بابل وأشور نماذج للمكتبات الوطنية في الحضارات القديمة، وفي الحضارة الإسلامية تأسست مكتبة الحكمة في بغداد، وفي الأندلس أنشأ المنتصر بالله المكتبة المستنصرية في العقد السادس من القرن الرابع الهجري، وفي مصر الفاطمية أنشأ المعز لدين الله الفاطمي دار الحكمة مكتبة عامة عام ٣٩٥ هجرياً، وما تزال الأسماء التي أطلقها العرب في أيام ازدهار حضارتهم على المكتبات مستخدمة حتى اليوم، مثل دار الكتب، وخزانة الكتب وما شابه ذلك.

وتعد المكتبات الوطنية في عالمنا المعاصر من مقاييس التقدم ورفق الأمم حضارياً، ففي مكتبة الكونجرس في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي مكتبة لينين بالاتحاد السوفيتي، وفي المكتبة الوطنية في باريس، وفي المتحف البريطاني بلندن.. في كل هذه المكتبات القومية ثروات هائلة من المعرفة، بل إن التطور في المكتبات العامة وصل إلى حد تقرير مكافآت مالية للمؤلفين لقاء استعارة كتبهم، ففي عام ١٩٨٢ رأت الحكومة الإنجليزية تخصيص مليوني جنيه إسترليني سنوياً تدفع إلى الكتاب والروائيين بعد أن وافق البرلمان على قانون جديد اسمه «حق الإغارة» أي أن الكاتب أو الروائي له الحق في الحصول على مكافأة عن كل مرة يستعير فيها قارئ أو قارئة كتابه من المكتبات العامة، وحتى يكون التوزيع عادلاً سيرصد العقل الإلكتروني هذه الاستعارة.

وقد أورد محمود الأخرس<sup>(٧)</sup> خبير التوثيق والمعلومات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إحصائية بالمكتبات الوطنية في الوطن العربي في العقد التاسع من القرن العشرين الميلادي، استقفاها من القوائم التي أرسلتها الأقطار العربية إلى إدارة التوثيق بالمنظمة على النحو التالي:

(٦) د. أحمد أنور عمر المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ - دار النهضة العربية - ١٩٦٦.

(٧) محمود الأخرس المكتبة العربية الوطنية - مجلة شئون عربية - العدد ١١.

عدد المقتنيات	عام التأسيس	اسم المكتبة الوطنية	القطر
٥٠٠ ألف	١٨٨٥	دار الكتب الوطنية	١ - تونس
حوالي ٩٥٠ ألفا	١٨٣٥	دار الكتب الجزائرية	٢ - الجزائر
٨٥ ألفا	١٨٨٠	دار الكتب الظاهرية	٣ - سورية
٤٠ ألفا	١٩٦٣	دار الكتب الوطنية	٤ - السعودية
حوالي ١٢٠ ألفا	١٩٦١	المكتبة الوطنية	٥ - العراق
٦٠ ألفا	١٩٦٣	دار الكتب القطرية	٦ - قطر
حوالي مائة ألف	١٩٢١	دار الكتب اللبنانية	٧ - لبنان
حديثة العهد بينى غازى		المكتبة الوطنية	٨ - ليبيا
حوالى مليون ونصف المليون	١٨٧٠	دار الكتب	٩ - مصر
٢٣٠ ألفا	١٩٢٠	الخزانة	١٠ - المغرب
حوالى ١٠ آلاف	١٩٦٥	دار الكتب الموريتانية	١١ - موريتانيا

ويعلق محمود الأخرس على تلك الإحصائيات بأن إنشاء المكتبات الوطنية في عدد من الأقطار العربية سبق غيره من المكتبات الوطنية في عدد من الأقطار العربية سبق غيره من المكتبات الأخرى، ويعود السبب في بعض الأقطار إلى اهتمام السلطات الاستعمارية كما هو الحال في أقطار المغرب العربي، كما يذكر أن دار الكتب الظاهرية في دمشق تقوم بأعمال المكتبة الوطنية على نطاق ضيق جداً، وأن دار الكتب الوطنية السعودية تقوم بأعمال المكتبة العامة ولا تنطبق عليها شروط المكتبة الوطنية، ويذكر أن ما يتستع يقانون الإيداع من المكتبات الوطنية العربية ست مكتبات وحسب في تونس، والجزائر، والعراق، ومصر، والمغرب، وموريتانيا.

ويطالب عدد كبير من الباحثين العرب بإنشاء مكتبة عربية على المستوى القومي، وهم يلحون في ذلك لأسباب عديدة منها: عجز المكتبات الوطنية القطرية، وعدم وجودها في كثير من الأقطار الأخرى، ومنها استطاعة المكتبة العربية على المستوى القومي أن تمد نشاطها خارج الوطن العربي، فتقوم بجمع كافة المطبوعات التي تصدر باللغة العربية في أي قطر غير عربي، والمؤلفات التي أصدرها المؤلفون العرب بلغات أجنبية، ومنها استطاعة الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي الذي مازال مخطوطاً، ويتوافر منه في العالم حوالى مليون مخطوط عربي، ثلثها في الأقطار الأجنبية والثلث الثاني في الأقطار الإسلامية وبخاصة تركيا، والثلث الثالث في الأقطار العربية، وتستطيع المكتبة العربية على المستوى القومي أن تسهم بدور فعال في المجال الدولى، وبخاصة في مجال المنظمات الدولية المتخصصة في المكتبات والتوثيق، مثل الاتحاد الدولى لجمعيات المكتبات والمؤسسات، والاتحاد الدولى للتوثيق، والمجلس الدولى للأرشيف، وما شابه ذلك من المنظمات، كما تستطيع بسهولة ويسر أن تحصل على كافة المطبوعات التي تصدر في البلدان العربية والتي لا تباع في الأسواق مثل التراوات والقوانين والنشرات ذات التوزيع الخاص.

## المكتبات في الحضارات القديمة:

إذا تتبعنا ظاهرة إنشاء المكتبات في الحضارات القديمة نجد مكتبة الإسكندرية (القرن الثالث قبل الميلاد) أشهر ما ذكره المؤرخون، وأهم حدث على الإطلاق في تاريخ المكتبات في العصور القديمة، ولكن هذه المكتبة الذائعة الصيت ماذا سبقها من مكتبات في الحضارات القديمة؟

يرى «الفرد هيسيل»<sup>(٨)</sup> أن الخطوة المنطقية هي أن نتحرى النموذج الأصلي لهذه المكتبة في مصر القديمة، فقد كانت مصر مصدر «البردى» مادة الكتابة القديمة، وكان للمصريين إنتاج وافر من الكتابات في ميادين العلم والأدب، وكانت الكتابة منتشرة في مصر آنذاك، وكان للمصريين نظام ممتاز من السجلات العامة والمحفوظات، ثم يقرر «هيسيل» أنه يرغم كل ذلك فإننا لم نسمع شيئاً عن وجود مكتبات يمكن أن تقارن بمكتبة الإسكندرية، لقد كان للمعابد مكتبات ولكنها كانت للأغراض الدينية والتعليمية، وكانت متصلة بالمحفوظات، وشبيه بهذا النشاط المكتبي في مصر الفرعونية كان النشاط المكتبي في الحضارة البابلية والآشورية في العراق، إن المكتبات الملحقة بالمعابد عند البابليين والآشوريين تحوى كتابات دينية وأخرى أدبية إلى جانب السجلات الإدارية، وأشهر مكتبة في حضارة ما بين النهرين تلك المكتبة الملكية لآشور بانيبال (القرن السابع قبل الميلاد) الملحقة بقصره. ويذكر المؤرخون أنه كان حفيظاً بالثقافة، وأنه كان على قدر كبير من التعليم حتى أنه كان يفخر بأنه يستطيع أن يقرأ النقوش الحجرية التي ترجع إلى ما قبل الطوفان، وقد شغف بجمع آداب ووثائق وعلوم بابل وآشور إلى جانب النصوص الدينية وأصدر أوامره الملكية باستنساخ هذه الآداب بعناية، ورتبت في مكتبته ترتيباً دقيقاً، وكانت مكتبة آشور بانيبال في نينوى مكتبة عالمية بمقياس عصرها، كما كانت مكتبة الإسكندرية، ولكن الأخيرة تتفوق عليها في كافة الوجوه، ولم يصل الباحثون من رجال الآثار والتاريخ إلى إجابة عن السؤال: هل كانت هناك علاقة بين مكتبة الألواح الفخارية في نينوى ومكتبة لغائف البردى في الإسكندرية؟

وفي الحضارة اليونانية القديمة نلاحظ ظاهرة جديدة يالاهتمام هي أن الكتاب كان تجارة رائجة قبل أن يفكر المجتمع في إنشاء المكتبات، ومع بداية القرن الرابع قبل الميلاد، وفي الفترة التي شملت نشاط المفكرين العملاقين أفلاطون وأرسطو، أصبحت المكتبات الخاصة أمراً شائعاً بين كبار العلماء والأدباء والفلاسفة، ثم كانت مكتبة الأكاديمية أشمل مكتبات اليونان القديمة.

وامتداداً للحضارة اليونانية القديمة كانت مصر البطلمية، وكانت مكتبة الإسكندرية، تلك المكتبة التي امتد نشاطها ليشمل ما يشبه مراكز البحوث ودور النشر الكبرى في عالمنا المعاصر، كانت النصوص اليونانية توثق وتدرس دراسة منظمة في مكتبة الإسكندرية، ومن ثم يمكن الحكم بصحة نسب الكتب إلى مؤلفيها أو بطلان النسب، وكانت المكتبة تقوم بإنتاج عدد كبير من نسخ الكتب تطرح للبيع، وكانت تجارة الكتب احتكاراً لها ولمتحف الإسكندرية وظل هذا الاحتكار حتى أيام قيصر، ويذكر المؤرخون جوانب عن فصارس مكتبة الإسكندرية إنها كانت تحوى قوائم للشعراء وأخرى للكتاب،

(٨) الفريد هيسيل تاريخ المكتبات (ترجمة د. شعبان خليفة) - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٢ ص ٢ وما بعدها.

وأن قوائم المؤلفين كانت مرتبة ترتيباً أيجدياً، ولكل مؤلف ترجمة مختصرة له ويتبع ذلك تبناً بمؤلفاته، أما تصنيف الكتب فكان يحوى عنوان الكتاب واستهلاله وعدد أسطوره، وبقيت هذه الفهارس اللوحية تحت منزلة رفيعة وكانت أساس جميع الأعمال البيولوجرافيا في العالم القديم.

ومع انتصار الرومان على اليونان في العصور القديمة أخذ القواد الرومانيون - القرن الثاني قبل الميلاد - يأتون إلى بلادهم بالمكتبات اليونانية فيها يأتون من أسلاب، وما كاد القرن الأول قبل الميلاد يقترب من نهايته حتى كان حب الكتب قد انتشر بين الأرستقراطية الرومانية، وكان «شيشرون» يعزى بمجموعة كتبه اعتزازاً كبيراً ويعتبرها درة بيته، وكان صديقه «أتيكوس» أول الناشرين الرومانيين الكبار حتى لقد وجد في نفسه الجرأة لينافس الإسكندرية في تجارة الكتب، ثم بدأ القياصرة في إنشاء المكتبات وفي بداية القرن الرابع الميلادي أصبحت المكتبات العامة في روما ثمانية وعشرين مكتبة، وحاولت المدن الإيطالية أن تحذو حذو روما في مجال المكتبات، وكانت عادة كبار القوم في العصر الروماني أن يمتلكوا مكتبات في قصورهم، وأن يحتفظ أتريائهم بعدد من العبيد المتعلمين لينسخوا لهم الكتب.

### المكتبات في العصور الوسطى:

إن التاريخ الواقعي لا يخضع دائماً لسياق التجريد العلمي، لذلك فالمؤرخون ليسوا متفقين على بداية العصور الوسطى ولا على نهايتها، ولكن بصفة عامة، كذلك فإن مثل هذه المصطلحات الأوربية لا تعنى المدلول نفسه بالنسبة للوطن العربي فالعصور القديمة أو الوسطى في أوروبا ليست قديمة أو وسطى عند العرب، ويرغم ذلك التحفظ فإننا نستخدم التعبير الأوربي باعتباره التعبير السائد ونحن نؤرخ للمكتبات.

كيف أصبحت المكتبات في القرون الوسطى؟ حل الرق محل البردى في مادة الكتابة، وترتب على ذلك تغير الشكل المادي للكتاب من لفائف البردى إلى مخطوطات الرق ذات غلاف يابس على هيئة الكتب الحديثة، ولكن المكتبة لم يطرأ عليها الكثير من التغيير ففي خزائن كتب البردى حفظت الكتب في شكلها الرقي، ونظراً لمزايا الرق في قوة الاحتمال، وفي إمكان الكتابة على الوجهين نقلت كتب من لفائف البردى إلى الرق، ويرجع «الفريد هيسيل» في حديثه عن المكتبات في العصور الوسطى «أن الشكل الرقي للكتاب كانت تدعو إليه المسيحية وهي القوة الدينية الصاعدة إذ ذلك، بينما تمسكت الوثنية وهي في موقف دفاع بالشكل القديم المألوف، ولعل التنافس بين المكتبتين المسيحية والوثنية وقع في نفس هذا الوقت»<sup>(٩)</sup>.

وأصبحت المكتبات بعد انتشار المسيحية ملحقة بالكنائس والأديرة، وخلال العصور المسيحية الأولى تمكن الرهبان في الشرق من نسخ عدد كبير من المخطوطات، باعتبار أن ذلك عملاً دينياً، ومن شعارات العصور الوسطى ذات الدلالة في مجال أهمية المكتبات في الأديرة بصفة عامة قولهم إن الدير بدون خزانة كتب مثل القلعة يغير سلاح.

وابتداء من العصور الوسطى المتأخرة بدأ نوع من التغيير في الحياة الثقافية الأوربية، وتركز هذا

(٩) المرجع السابق ص ١٥.

التغيير في تحرير العلمانيين أنفسهم من سلطان الكنيسة، وكان طلاب هولاء المتحررين من النبلاء أبناء المدن الكبيرة الجديدة، والحياة الأرستقراطية الأوربية الميالة للأدب وبخاصة الشعر، وقد انعكس ذلك كله على مكبات القرون الوسطى المتأخرة، وبخاصة مع ظهور الجامعات في أوربا، وظهور السوق التجارى للكتاب، وأصبحت المكبات تنهج أساساً إلى خدمة المعرفة ومعاهد الدراسة بطريقة أكثر عما كان في أوائل القرون الوسطى، وأصبحت الملحقة بالأديرة والكاندرايات والكنائس.

### المكبات في عصر النهضة:

يرى «الفريد هيسيل» أن مبدأ فتح المكبات للاستعمال العام من أهم الخصائص التي تميزت بها مكبات عصر النهضة عن مكبات العصور الوسطى، وإلى جانب ما يراه «هيسيل» فإن مكبات عصر النهضة شهدت الكتاب المطبوع إلى جانب الكتاب المنسوخ، ولكن ما هي آثار الطباعة في تطوير المكبات. يجيب «هيسيل» بأن الأثر الأول هو انفصال العلاقة بين المناسخ والمكبات إلى الأبد، فلقد كانت المكبات والمناسخ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعضها ببعض من العصور القديمة إلى العصور الوسطى ثم في أوائل عصر النهضة أما في القرن السادس عشر وبسبب انتشار الطباعة انفصلت العلاقة بين صانعي المخطوطات وجامعيها إلى الأبد، والأثر الثاني من آثار الطباعة في تطوير المكبات يتمثل في الزيادة الهائلة في إنتاج الكتب، وما تبع ذلك من ظهور العديد من المشاكل المكتبية غير المتوقعة وأولها تغيير نظام ترتيب الكتب.

ولقد شهد القرن السادس عشر إهمال وضياح الكثير من المكبات الكنسية في ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا، وفي المقابل بدأت نشأة مكبات البلديات في المدن الأوربية تلك المكبات التي يمكن اعتبارها مكبات عامة. ورغم أن فئة متميزة كانت تمثل روادها، وشهد القرن السادس عشر أيضاً طريقة وضع الكتب على الرفوف الحائطية، كما شهد الإصراف في فخامة تجليد الكتب، أما القرن السابع عشر فقد شهد الاهتمام بالتصنيف وبالكتب العلمية، وفي القرن الثامن عشر أُلحقت خزائن الوثائق ببعض المكبات الكبرى.

### المكبات في العصر الحديث:

لعل أهم ظاهرة في العصر الحديث تتعلق بالمكبات هي نشأة المكبات الوطنية، تلك الظاهرة التي تتركز في نشأة مكتبة رئيسية في الوطن تسمى المكتبة الوطنية أو القومية أو الأهلية، والتي ترتبط بصور قوانين الإبداع القانوني لما ينشر من كتب في تلك المكتبة، وأوضح مثلين للمكبات القومية في العصر الحديث هما: المتحف البريطاني في لندن British Museum والمكتبة الوطنية الفرنسية في باريس Bibliothéque National ثم تلحق بهما تاريخياً مكتبة الكونجرس الأمريكى في واشنطن Library of Congress ولكنها تفوقها الآن قدرة واتساعاً.

ويعد المتحف البريطاني من أشهر المكبات الوطنية في عالمنا المعاصر، والذي يرجع تاريخ افتتاحه إلى عام ١٧٥٩ لكل راغب في الدرس والاطلاع كما نص قانونه بذلك، ومنذ إنشائه كانت مقتنياته تنمو باطراد من الهبات الكبيرة مثل مكتبة الملك جورج الثالث، ومن القوانين التي يصدرها البرلمان بين

المين والآخر بإضافة مجموعات من المكتبات إليه، ولكن الانطلاقة الكبرى للمتحف باعتباره مكتبة وطنية كبرى جاءت على يد أمين متحمس يدعى أنطوني بانيتزي Antony Panizzi الذى جعل مقتنياته تصل إلى مليون مجلد في عام ١٨٧٠.

وفي باريس تعد المكتبة الوطنية محصلة جهود طويلة في سبيل إنشاء مكتبة وطنية في فرنسا، فمئذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ صدر قانون في نوفمبر من العام نفسه يجعل مكتبات الكنائس ملكاً للدولة، وبعد ثلاث سنوات صودرت مكتبات النبلاء والأرستقراطيين المهاجرين خارج فرنسا، ثم مع غزوات نابليون عادت الجيوش الفرنسية المنتصرة من هولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا بالكثير من الكتب القيمة إلى باريس.. كل هذه الروافد للكتب صبت في المكتبة الوطنية التي صدر لها قانون في عام ١٨٠٥ يقضى بإكمال مجموعات من مقتنيات المكتبات الأخرى في فرنسا، ثم بصدر قوانين الإيداع القانوني لما يطبع من كتب في فرنسا، وعندما توسعت المكتبة الأهلية في باريس أكثر وأكثر اقتضت في مبنائها النمط المعماري للمتحف البريطاني، وكان حماس الأمناء المتعاقبين في القهرسة والتصنيف والتنظيم عاملاً مساعداً لتأخذ المكتبة موقعها المرموق عالمياً.

إن أكبر مكتبة وطنية في عالمنا المعاصر هي مكتبة الكونجرس الأمريكي، تلك التي أنشئت في عام ١٨٠٠ ثم لحقتها الكوارث بالحريق عام ١٨١٤ حين غزا الجيش البريطاني واشنطن ودمرها تماماً ثم أعيد إنشاؤها، ولكن الحريق الثاني داهمها عام ١٨٢٥ ثم الحريق الثالث عام ١٨٥١، ولكنها انتقلت إلى مبنى جديد عام ١٨٩٧ وكانت مجموعاتها تبلغ ٨٠٠ ألف مجلد و٢٠٠ ألف نشرة، وفي عام ١٨٩٦ عين لها أمين معاصر يدعى هربرت بوتنام الذى ظل ينميها حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٩ وقد بلغت مجموعاتها ستة ملايين مجلداً.

وتقع مكتبة الكونجرس في قلب واشنطن العاصمة في مواجهة مبنى الكونجرس، وتحوى ثلاثة مباني ضخمة، وقد زادت محتوياتها في مطلع العقد التاسع من القرن العشرين عن عشرين مليون كتاب، مصنفة داخل أجهزة الكمبيوتر، وقد تأسس في عام ١٩٤٥ قسم خاص بالشرق الأوسط في المكتبة يضم معظم الكتب التي تصدر في البلدان العربية وتركيا وإيران وأفغانستان، وتزود الكتب العربية في مكتبة الكونجرس كل عام بمعدل ألف كتاب أو أكثر هذا إلى جانب الصحف والدوريات التي تصدر في الوطن العربي، ومن المعروف أن مكتبة الكونجرس تضم مقتنيات بحوالى ٤٠٠ لغة وأنها تشبه مرصداً أرضياً لما ينشر فوق الكرة الأرضية من كتب ودوريات، ومخزناً متجدداً لأهم ما يصدر في العالم.

القارىء:

لا يمكننا أن نتحدث عن توزيع الكتاب دون الحديث عن القارئ لأنه «المستقبل» أى «المتلقى» لوسيلتنا الإعلامية «الكتاب»، ولقد أجريت بحوث عديدة في بلدان العالم عن عادات القراءة وأحوال القراء، وقامت «أراك» في مصر يبحث من هذا القبيل في العقد السابع من القرن العشرين انصب أغلبه على قراء الصحف، ولم يلحق به بحث آخر بعد ذلك، وفي الحلقة الدراسية التي أقامتها اليونسكو في القاهرة خلال فبراير ١٩٧٨ عن إنتاج وتوزيع الكتاب العربي تناول البحث الذى قدمه الدكتور

محمود بازرعة<sup>(١٠)</sup> أهمية دراسة السوق لنجاح تسويق الكتاب العربي، وأشار بأن مثل هذه الدراسة تهدف إلى تحديد نوعية الطلب على الكتاب، وخصائص المستهلكين الحاليين والمرتقبين، كما أنها تشمل أيضاً تحديد حجم الطلب المتوقع، والذي على ضوءه تتحدد الكميات المطبوعة، وقال إنه للقيام بهذه الدراسات يمكن الاعتماد على المصادر الأولية للبيانات والمصادر الثانوية لها، وللقيام بجمع البيانات من مصادرها الأولية فإنه يمكن أن يتم ذلك عن طريق الاستقصاء أو الملاحظة، ويتطلب ذلك إعداد قوائم الأسئلة والملاحظة واختيار المقابلين (الباحثين) وتدريبهم والإشراف عليهم، وتحديد المجتمع الذي ستم عليه الدراسة، وتحديد نوع وحجم العينة، واختيار مفردات العينة من مجتمع البحث، ويتطلب تحليل البيانات الاعتماد على أسلوب التقدير الإحصائي، وعلى أسلوب اختيار معنوية الفروق.

ويتم اختيار نوع السوق وفقاً لتحديد استراتيجيات القراء، حيث يقاضل الاقتصاديون ويقارنون بين السوق المعممة *Undifferentiated Marketing* وتعني نشر الكتب بشكل واحد وبنفس الموضوعات لجميع القراء في السوق، وبين التركيز *Concentration* وتعني تركيز دار النشر على أحد أجزاء السوق وقصر النشر لها، ثم مقارنة ذلك بتجزئة السوق *Market Segmentation* وتعني تجزئة السوق وفق خصائص القراء المتوعين من حيث السن والجنس والتخصص والمهنة والمرحلة الدراسية والدخل وما إلى ذلك، ثم نشر مجموعة من الكتب تضع في الاعتبار هذه الخصائص.

والقارئ مع الكتاب في حالة مختلفة عن المستمع مع الراديو أو المشاهد مع التلفزيون، إن القارئ طرف في العملية الإعلامية ذو فاعلية وديناميكية خاصة، يقول «سارتر»<sup>(١١)</sup> إن المرء حين يقرأ يكون في حالة تيبؤ وانتظار، فهو يتنبأ بنهاية الجملة، وبالجملة التالية، وبالصفحة بعدها، وهو منتظر أن يؤكد تلك الصفحات بتنبؤاته أو ينفيتها، فالقراءة تتألف من عدد جم من الفروض، ومن أحلام متلوة يبقطة، ومن ضروب من الأمل واليأس، والقراء سباقون على الجمل التي يقرءونها، يتقدمون في ذلك نحو مستقبل محتمل ينهار في بعض أركانه أو يرتفع كلما تقدموا في القراءة.

ويضيف بأنه لا يصح أن نعتقد أن القراءة عملية آلية بتأثيرها القارئ بالحرروف المكتوبة كما تتأثر لوحة آلة التصوير بما ينعكس عليها من ضوء، فإذا كان القارئ شارد اللب أو متعباً أو أحمق أو مضطرب الفكر، أعياه إدراك كثير من العلاقات المصورة في العمل الأدبي، فلا يصل إلى درجة إشراق الموضوع في نفسه كما تنقد النار، وفي هذه الحالة يعي بعض الجمل التي تتراعى لعينه في ظلام الغموض، وكأنها تنظيم عن طريق الصدفة، أما إذا كان القارئ في خير حالاته، فإنه سيجلو لنفسه من وراء الكلمات صورة مركبة لا تعدو كل جملة فيها أن تكون ذات وظيفة جزئية، وتمثل هذه الصورة في القضية التي يريد الكاتب نفيها أو إثباتها، أو في الموضوع أو في المعنى العام.

هذه العلاقة الحميمة بين القارئ والكتاب هي مفتاح توزيع الكتب إذا تضافرت أطراف صناعة النشر لتحقيق النجاح، وهذا التضافر والتعاون بين الأطراف المشتركة في إنتاج الكتاب هو الذي جعل

(١٠) حلقة دراسية عن مشكلات إنتاج الكتاب العربي بالقاهرة من ١ - ١٠ فبراير ١٩٧٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع منظمة اليونسكو.

(١١) جلال أول سارتر ما الأدب؟ (ترجمة د. محمد غنيمي هلال) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧١ - ص ٤٨ -

رئيس نقابة الناشرين الفرنسيين في العقد التاسع من القرن العشرين يقول إن قضية احتياجات القراء من مصنفات هي قضية التوزيع، ونجاح كتاب دون آخر منها اختلفت قيمته يتوقف على عوامل كثيرة منها الطباعة والتوزيع والدعاية والتوقيت والتقييم.

هذه الاعتبارات المختلفة نقول إن القارئ هو هدف التوزيع، وأنه كلما تسرت الدراسات عن القارئ وميوله واتجاهاته كلما حقق موزعو الكتب النجاح.